دور الجامعات في التصدّي للغزو الثقافي المعاصر

د. محمد حافظ شريدة *

ABSTRACT

Universities' role in challenging contemporary cultural invasion:

The present study aims at explaining the role that our universities play in the Society. The universities, in the Arab and Muslim worlds, are asked today Islamize all areas of knowledge: sciences, social sciences and humanities. They

Should also work to refute theories that run into conflict with religion and science In addition, they have to replace philosophical ideas with enlightening Islamic Ideology and consider the Wahi (revelation) the most important source of culture.

They also need to combine between originality and modernism. Finally, they have To render all sciences in Arabic language.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان أهمية الدور الذي تقوم به جامعاتنا الزاهرة في هذه الأيام و الذي يتلخص في

الأمور التالية:

1. اسلمة المعارف و العلوم.
2. نبذ النظريات التي تتعارض مع الدين و العلم.
3. استبدال الأفكار الفلسفية بالفكر الإسلامي المستنير.
4. اعتبار الوحي أهم مصادر الثقافة.
5. الجمع بين الأصالة والمعاصرة.
6. صياغة جميع العلوم باللغة العربية.

* كلية الشريعة - جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين.

المقدمة:

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجّي قائلها يوم الدين، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله وصفّيه وحبيبه، بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن استنّ به واتّبع هداه إلى يوم الدين. وبعد:

فحينما فهمنا ديننا فهماً صحيحاً، وطبّقناه تطبيقاً جادّاً، وعملنا على نشره بالتي هي أحسن: فزنا بسعادة الدارين، أفراداً ومجتمعات ... وحينما ابتعدنا عن ديننا شيئاً فشيئاً، سلّط الله علينا من لا يخافه ولا يرحمنا، لا لأن أعداء الله أتقى منا، ولكن لنعود نحن المسلمين إلى مصدر عزتنا وسعادتنا: الكتاب المجيد والسنة النبوية المشّرفة،حتى نستحق النصر والتمكين في الأرض.

لقد كان لنا حضارة عالمية إنسانية ربانية فريدة، سادت ردحاً من الزمن، ولم يعرف التاريخ لها مثيلاً، ولكنها لمعصيتنا ذابت ثم بادت ! ومما يزيد الطين بلّة والمريض علّة - كما يقال - أن العالم الإسلامي ينقصه ما في الغرب من التقدم العلمي والتفوّق التقني والجلد على العمل والحرص على النظام وسيادة القانون ... فكأنّ المسلمين بابتعادهم عن هذا الدين خسروا سعادة الدارين (والعياذ بالله).!

لقد أخذت الحضارة الغربية (المادية الجاهلية) المعاصرة علوم المسلمين (الكونية والإنسانية) لا الدينية والأخلاقية، وذلك أثناء احتكاكها بأمتنا الإسلامية في العصور الوسطى في الأندلس وشمال إفريقيا وغيرها من حواضر العالم الإسلامي في بغداد ودمشق وبخارى ... نعم لقد قامت حضارة الغرب المعاصرة على علوم المسلمين، ولكنها لم تأخذ الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياةٍ وأخلاقاً، رغم ضعفها وفقرها وحاجتها للجانب الروحي والمعنوي !

أما أمتنا الإسلامية المعاصرة، فقد أخذت -نتيجة الغزو الثقافي الفكري المعاصر - مفاسد الحضارة الغربية دون إيجابياتها ! وهذا يدل على خطورة هذا اللون الجديد من الغزو الذي نعاني منه حتى الآن !

وإذا كان عقلاء أوروبا وأمريكا اليوم يحذّرون أقوامهم من الخواء الروحي ومن سيطرة المادة على حياتهم، ويتنبئون بأن الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار ... فإننا نجد من

بعض أبناء جلدتنا - ممن يتكلمون بألسنتنا – من لا يزال يبمّ وجهه شـطر لنـدن وواشـنطن وموسكو وباريس وبكّين ... لأخذ أوضار الجاهلية المادية، حتى ما تخلّت هي عنه لشدّة فساده!

والحقّ يقال: إنه مهما بلغ مكر أعدائنا بنا – في أي زمان أو مكان أو مجال – فإننا لن نؤتى إلا من قبل أنفسنا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذلك بأنّ الله لم يكُ مغيّراً نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميع عليم ﴾.(سورة الأنفال اية53)

ولا جرم أنّ الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وقد أصاب كبد الحقيقـة مـن قال: إن الإمامة العظمى هي حراسة الدين وسياسة الدنيا معاً،لإصلاح الفرد والمجتمع والدولة في توازن رائع دقيق، للفوز بسعادة الدارين. ولا ريب أن للدولة الإسلامية الدور الكبير في المحافظة على تراث الأمة وحضارتها وحماية مقدساتها، وصيانة عقول أبنائها – في مختلف مراحل التعليم – من أي فكر وافد شاذ غريب ضالّ مضلّ !

أما وقد أصبحت أمتنا اليوم كالأيتام على مأدبة اللئام، وتداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها (أحمد: 278/5) ، ورواه الإمام أبو داود في السنن، كتاب الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام، حديث 4297... فإن هذا العبء ملقى بعد زوال الخلافة الإسلامية، على العلماء وأصحاب الغيرة والفكر المسـتنير من أولي الألباب من أمتنا المجيدة، وذلك لتحصين عقول شـبابنا وفلذات أكبادنا من أبناء الجيل الصاعد (أمل الأمة وعُدّة المستقبل) بالعلم النافع الصحيح والعمل الصالح النظيف، والردّ على شبهات وافتراءات الكافرين والمنافقين والجاهلين والسفهاء !

ولتحقيق هذه الأماني المنشـودة فقد أحسـنت جامعتنا الحبيبة جامعة الأقصى – واجهة المسجد الأقصى المبارك وحارسته المعنوية – أحسنت صنعاً في عقد هذا المؤتمر العلمي الرابع في قطاع غزة الصامد . وبالرغم من قسوة الاحتلال فإن جامعاتنا العريقة الفتية في أرض الإسراء – أرض المحشر والمنشر والرباط – ستؤدي دورها الرائع الرائد (بإذن الله) في التنمية الثقافية الأصيلة، وخاصة في التصدي للغزو الثقافي الفكري المعاصر، الذي لا نزال نعاني من آثاره حتى الساعة !

لأهمية وخطورة الثقافة والفكر في حياة أمتنا المعاصر، أحببت أن يكون بحثي المقـدم لهذا المؤتمر بعنوان : دور الجامعات في التصدّي للغزو الثقافي المعاصر

أهداف البحث:

الهدف من بحثي هذا هو التّعرف على دوْر الجامعات ــ وخاصة الفلسطينية ــ في التصدّي للغزو الفكري الثقافي المعاصر الذي تعاني منه أمتنا الإسلامية .

الدراسات السابقة:

تناول كثير من الباحثين المسلمين المعاصرين خطورة الغزو الفكري المعاصر وعلى رأس هؤلاء الأساتذة : أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي وسيّد قطب ومحمد قطب ومحمد الغزالي ومصطفى السباعي وأنور الجندي وعلى جريشة وجمال سلطان ...، ولكنّ أحداً منهم لم يتوسّع في الحديث عن دور الجامعات والمعاهد في عالمنا العربي في التصدّي للغزو الفكري والثقافي المعاصر ، فكان هذا البحث المتواضع ضرورياً لسد هذا الخلل ولدق ناقوس الخطر !

تساؤلات البحث:

يجيب هذا البحث عن التساؤلات التالية :

1. ما خطورة الغزو الفكري الثقافي المعاصر ؟
2. ما الأساليب التي تستخدم لتعميق الهوة بين المسلمين وبين مصادر دين الإسلام الرئيسة الكبرى ؟
3. ما دوْر الجامعات والمعاهد العليا في التصدي للغزو الفكري المعاصر؟

خطة البحث:

المقدمة : وفيها أهمية البحث ، وخطورته ، وأسباب اختياره.

مدخل إلى البحث:أ _ الحضارة الإسلامية بين الأمس واليوم.

ب_ نشأة الغزو الثقافي وخطورته

صُلْب الموضوع: دور الجامعات في التصدّي للغزو الثقافي المعاصر.

المبحث الأول :نحو فكر إسلامي أصيل .

المبحث الثاني :إسلامية المعرفة.

المبحث الثالث : المشكلة والحلّ.

الخاتمة :وفيها خلاصة البحث ، وأهم النتائج والتوصيات .

مدخل إلى البحث:

أ - الحضارة الإسلامية بين الأمس واليوم

لقد عاشت أمتنا الإسلامية المجيدة أكثر من ألف عام في مقدّمة الأمم، بل لقد عاشت فترة طويلة من الزمن هي الأمة الأولى في العالم كله،يعمل لها ألف حساب. وحملت في هذه الفترة الطويلة من الزمن حضارة الإسلام للدنيا كلها، بالعلم والخلق والقدوة والدعوة، قبل أن تحمل السيف والرماح في وجوه المخالفين(جريشة والزيبق :.5/1397).

ومنذ أكثر من ألف سنة وأعداء الإسلام – من أهل الكتاب ومن الذين أشركوا – يكيدون له، ويضعون المخططات ويدبّرون المؤامرات ويجمّعون التجمّعات: لكسر شوكته ومكافحة دعوته ودحر أمته، ومع ذلك فقد بقي الإسلام – وسيبقى بإذن الله – كالجبل الأشم لا تهزّه الأعاصير!

إنّ الصراع بين الحق والباطل قائم إلى يوم الدين، والصراع بين الإسلام والكفر مستمر ومتشعب وعميق ... وقد حاول الأعداء جاهدين أن ينالوا من هذا الدين، وأشهروا في وجهه جميع أنواع الأسلحة، ولكنها تحطمت على صخرة الإسلام العظيم (أبو قاهوق: 1993/.ص4).

ومع كثرة وشدة المعارك التي خاضها الإسلام مع أعدائه – قديماً وحديثاً – فقد تنوعت واختلفت مداخل الأعداء، وتعددت حيلهم لهدم كيانه وتقويض أركانه ... وقد علّمنا القرآن الكريم والسنّة المطّهرة وأخبرنا التاريخ الصادق أن أهم أسلحة العدوّ وأخطرها: الهدم والغزو من الداخل – في الصميم - وبذا كان المنافقون (الطابور الخامس) هم أخطر الأعداء على الإطلاق (سلطان: 1412هـ/3)، ومن هنا حذرنا الله تعالى منهم فقال: ﴿ هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴾(سورة المنافقون آية 4)

ومع الأسف الشديد تم انحسار الإسلام عن الحياة المعاصرة انحساراً تاماً تقريباً ! انحسرت أنظمة الإسلام، وانحسرت إلى حدّ ما عباداته ... ثم انحسرت عقائده نتيجة لذلك، حتى إنك نادراً ما تجد بين مثقفي اليوم إنساناً صافي العقيدة فاهمها ! ولو قارنّا – كما يقول الداعية سعيد حوّى – بين الردّة الحاضرة والردّة الأولى: لوجدنا أن الأولى أخطر في بعض جوانبها، على اعتبار أنها قامت والإسلام في أول عهده لم يتمكن في الأرض ! وأنّ المعاصرة أخطر في بعض جوانبها، لأن الأولى تهيأ لها وحدة تضم المسلمين جميعاً، وتهيأ لها كذلك قيادة واحدة (حوّى :9) !

والحق يقال: إن الردّة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم أخطر من الردّة الأولى: لأن الأولى كان فكرها ضحلاً، وكان الإسلام يمثل مثلاً أعلى عظيماً وجديداً ... أما المعاصرة فهي ردّة مزخرفة تحت أسماء برّاقة، وبيدها كل الوسائل للوصول إلى الأدمغة والعقول، بينما الطرف الآخر – المسلمون – ليس لديهم من الوسائل مثلما هو مهيّأ لأفكار الضلال والفساد !

تنوعت أساليب الأعداء في الكيد للإسلام، ومحاولة استئصاله عبر التاريخ، وكان أهم هذه الأساليب الشيطانية: الغزو الفكري الثقافي المعاصر (نوفل والمصري وعويضة : 1404هـ/48).

حقاً إننا نعيش اليوم في زمن تقاربت فيه المسافات، واتصلت المجتمعات، وتشابكت المصالح لسهولة المواصلات ... وأصبح العالم كأنه مدينة كبيرة أو مجموعة بلدات ! فيحسّ المسلم الغيور المثقف المتديّن بغربة وضياع،بين عقيدة سليمة يعتنقها، وبين واقع أليم مغاير لهذه العقيدة الصحيحة الربانية، تتجاذبه العقيدة والواقع، فيقف على مفترق طرق، إما أن ينحرف مع الواقع ويتخلّى عن عقيدته فيضيع مع التائهين، أو يختار العزلة عن واقعه فيصبح خطراً على نفسه وأمته ودينه، وإما أن يدع المقادير تجري في أعنّتها، مكتفياً بحماية نفسه، متخذاً موقفاً سلبياً تجاه أهله ووطنه وأمته والإنسانية جمعاء (المصري : 1409ه /5).

لقد أثّرت تلك الانحرافات على بنية الفرد والمجتمع، وغشي الدخن عيون بعض أبناء الإسلام، فأصبح يرى فيه عقبة تحول دون تقدّم المسلمين! وما علم أن الذي يحول دون ذلك التقدّم سوى الأغلال التي كبّل المسلمون فيها أنفسهم، وتلك العقائد التي وفدت إلينا من غيرنا. ولما كانت هذه الانحرافات أمراضاً هدّت جسد الأمة وأضعفت قواها فإن الأمر الطبيعي أن يطمع فينا الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر .. فحينما سنحت لهم الفرصة وثبوا علينا وثوب الأسد على الفريسة، وأعملوا أنيابهم في جسدنا فمزّقوه إرباً إرباً ... وأزالوا الخلافة واستعبدوا الشعوب (الأشقر : 1412ه/4)!

وممالا شك فيه أنّ أخطر وأهم وأكبر وأول ما أصاب الأمة الإسلامية، هو بعدها عن الكتاب والسنة (مصدر عزتها في الدين والدنيا والآخرة)، ومحاولة الأخذ من غير هذين النبعين الصافيين، خاصة بعدما أوتي الغرب شيئاً من التفوق الحضاري على أساس مادي. وصحب ذلك انهزام داخلي أصاب شعور الأمة في الصميم، فعدلت ما عند الناس بما عند الله رب الناس ! وصحب ذلك التقليد والمحاكاة للغرب القوي، والفرقة والتأخر للشرق الضعيف ! وأعقب ذلك كلّه: تخلّف عن مواكبة العصر الحاضر فيما وصل إليه من أبحاث علمية تجريبية، وما حصل في الوقت نفسه من إغلاق باب الاجتهاد، وأدّى ذلك إلى الأخذ بقشور المدنية الغربية وضلالها دون الأخذ بتقدمها المادي الدنيوي (جريشة:.ص6) !

إنّ العالم اليوم أصبح وكأنه يعيش في جزيرة واحدة، وصنّفت دول العالم وفق المقياس المادي التقني ... فهناك العالم الأول والثاني والثالث ! وأصبحت بموجب هذا التصنيف دول

العالم الإسلامي في قائمة العالم الثالث ! وقد أخذت الأمة المسلمة بهذا التصنيف وبتلك القسمة راضية أو مكرهة ! وشعرت بأنها طالب علم صغير أمام تلك الأمم الراقية المتعلمة، تسعى جاهدة لخطب ودّها واسترضائها وتقمّص شخصيتها، وهذا – والحق يقال – وضع مرير، والاعتراف به أدهى وأمرّ، ولكن لا فائدة من عدم الاعتراف به وإنكاره (الطريقي: 1415ه/ ص5) !

وهكذا يتبين لنا أن هناك مشكلة بحاجة إلى حل جذري ،والحل كامن في الرجوع للكتاب والسنة (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

ب - نشأة الغزو الثقافي وخطورته

للإجابة عن التساؤل الأول : ما خطورة الغزو الثقافي ؟ وما الأساليب التي تستخدم لتعميق الهوّة بين المسلمين ومصادر الإسلام الرئيسة، قام الباحث بالحديث المفصل عن نشأة وخطورة الغزو الثقافي .

لقد جعل الدين الإسلامي الحنيف من المسلمين جميعاً أمة خاصة من دون الناس، أمة متميزة ذات شخصية فريدة مختلفة عن غيرها من الأمم ... فظل الفكر الإسلامي سليماً، وبقي منطلقاً من طبيعته ومضمونه، قائماً على التوحيد الخالص، يواجه النظريات الفلسفية المختلفة، ويدلي برأيه فيها، ولا يتوقف عن النظر المنصف إليها، ولا يتقبل أي شيء منها يتعارض مع مبادئه (المصري: 11) !

والإسلام بانفتاحه على الثقافات الأجنبية والفكر العالمي، قادر على الأخذ والعطاء على سجيّته، ودون أن يخرج عن أيّ من مقوّماته، وقد بقي الإسلام وحفظ من الانهيار والتفكك لبقاء القرآن الكريم بعيداً عن كل الأخطار،سليماً لم يمسّه سوء، مصداقاً لقول الله تعالى :﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ (سورة الحجر آية9) . وبقيت السنّة النبوية المطّهرة (توأم القرآن الكريم) هادية للمسلمين، بعد أن أسلمنا إياها سلفنا الصالح نقية صحيحة سليمة، تنير لنا الطريق إلى يوم الدين (السباعي).

ولقد واجه الإسلام منذ ظهوره في مكة المكرمة إلى أن قامت دولته في المدينة المنورة كثيراً من التحديات: تحدّي وثنية قريش، وتحدّي أهل الكتاب – داخل الجزيرة العربية وخارجها -، وتغلّب بفضل الله على هذه التحديات، وامتدّ شرقاً وغرباً، وتعرّض لمحن وفتن داخلية على يد أعداء الله وخاصة من السبئية (العودة : ط2). فكانت الأمة الإسلامية من الوعي والدين والقوة، بحيث فوّتت على الأعداء أهدافهم ! وسار الإسلام رغم ما أصاب المسلمين

مــن جراح قدماً، إلى أن بدأت عقيدة المسلمين تضعف، وبدأ الزيغ يدخل نفوسهم، فأصابهم مــا أصـــاب الأمم من قبلهــم، وقادهم ذلك إلى الضعف، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾(سورة الرعد: آية11). فكانــت العوامــل الداخلية التي أدّت إلى ضعف أمتنا المسلمة أهم من العوامل الخارجية ! أما العوامــل الداخليــة فأهمها:

1- انشقاق المسلمين إلى فرق. 2- انشغالهم بالفلسفة وعلم الكلام.

3- الانقسام السياسي لدولة الإسلام في القرن الرابع الهجري (الخليفــة العباســي فــي بغــداد والفاطمي في مصر والأموي في الأندلس)!.

4- الشعوبية. 5- الباطنية (المصري والسعيد).

وأما العوامل الخارجية – آنذاك – فهي:

1- الحروب الصليبية. 2- التحدّي المغولي.

3-الاستعمار الأوروبي(المصري والسعيد) (المصري والسعيد).

وأدّت هذه العوامل - الداخلية والخارجية – إلى النتائج التالية:

أ. الابتعاد عن الشريعة الإسلامية تدريجياً.

ب. زوال الخلافة الإسلامية وتفكّك العالم الإسلامي.

ج. تمزّق العالم الإسلامي بين التكتلات والأحلاف الدولية(المصري والسعيد)!

ومنذ القرن السابع عشر الميلادي والغزو الفكري تمهــد لــه أجنحــة المكــر الثلاثــة (الميداني) الاستشراق والتنصير (ما يسمى بالتبشير) والاستعمار، وتقوم علــى خدمتــه أجهــزة عديدة، ويناصره أعوان كثيرون، حتى استطاع هذا الغزو الشامل أن يأخذ دوره ومواقعــه فــي عقول كثير من أبناء المسلمين وقلوبهم ! ورأى الكفار والمــستعمرون أن يعمّقــوا الهــوة بــين المسلمين وبين مصادر الإسلام الرئيسة، فغيّروا سائر أنظمة التعليم، وبدّلوا مناهجــه وبرامجــه، وسخّروا وسائل الإعلام والتوجيه الفكري والتربوي ووظفوها لإحداث عملية التغيير الثقافي لدى الأمة الإسلامية، حتى يضمنوا ألا تقوم لهذه الأمة قائمة بعــد ذلــك (المعهــد العــالمي للفكــر الإسلامي:.11/1406).

يتعرض الإسلام اليوم إلى أبشع صور التحدّي والعدوانية، ويتمثل ذلك في الغزو الثقافي الفكري المعاصر. فبعد أن أيقن أعداء الله أن الغزو العسكري لغة غير مجدية، حدا بهم ذلك ودفعهم إلى اتّباع طرق وأســاليب جديدة، أقوى تأثيراً وأكثر فاعلية من الهجوم العسكري

المسلح، تلك هي غزو العقول وإثارة الشبهات حول أسس ومقومات الثقافة الإسلامية، ومن ثم إيجاد جيل من المسلمين لا يمتّ إلى الإسلام بصلة ! والغزو الفكري وليد غير شرعي للغزو العسكري! ويتميز بالدوام والشمول والامتداد، فهو حرب مستمرة دائبة لا يحصرها ميدان، وتسبق حروب السلاح (المعارك)، فتشلّ الإرادة والعزيمة لكل من يبدي أية مقاومة (عدوان واخرون: 1412ه/43) !

الدافع للغزو الثقافي الفكري المعاصر هو الحصيلة المرّة التي خرج بها الصليبيون من حروبهم الأولى مع المسلمين في القرنين الخامس والسادس من الهجرة (الحادي عشر والثاني عشر الميلادي)، والتي انتهت بالهزيمة الساحقة للأعداء !

والهدف من هذا الغزو هو اقتلاع العقيدة من نفوس المسلمين وصرفهم عن الإسلام، أما الوسائل فكثيرة ... وأهمها: مناهج التربية والتعليم، ووسائل الثقافة والإعلام (قطب :196/1407).

والغزو الفكري: هو غزو العقول والسيطرة عليها، وإثارة الشبهات والأباطيل حول أسس وقواعد الثقافة الإسلامية، ونشر الأفكار المسمومة الغريبة عن هذه الثقافة ومن ثم إيجاد جيل من أبناء المسلمين لا يمتّ إلى الإسلام بصلة إلا مجرد التسمية (جبر :ص2)، وبعبارة أخرى : الغزو الثقافي هو الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي المعاصر لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية، وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام (قطب: ص195).

وحقيقة هذا الغزو تتجسد في غرض أساسي جامع هو أن ينخلع المسلمون من دينهم ، والغاية هي محاربة الإسلام، وخدمة النصرانية المبرّأة في جوهرها الأصيل من هؤلاء الكاذبين الأشقياء، الذين لا يعنيهم المسيح (عليه السلام)، إنما يعنيهم استعمار ديار المسلمين فحسب (عبد العزيز :1421ه/159)!

وهؤلاء الخبثاء يريدون من المسلمين أن يتمردّوا على دينهم، فيخرجوا من هذا الحصن المنيع، لينقلبوا بعد ذلك مفككين خائرين مضطربين! تفتر فيهم حرارة العقيدة، وترقد فيهم حماسة الغيرة وجذوة التقوى، كي ينقلبوا على أعقابهم مهزومين خاسرين (عبد العزيز :1421ه/159).

لقد وعى الصليبيون المحدثون (الجدد) نصيحة الصليبي القديم (لويس التاسع) الذي حثهم على محاربة العقيدة الإسلامية من داخل نفوس المسلمين! نعم وعى الاستعمار الحديث ذلك حين بدأ جولته الصليبية الثانية ضد العالم الإسلامي، فجاءوا لا بالسلاح وحده - كما في المرة الأولى -ولكن بما هو أخطر منه كثيراً وأشدّ فاعلية، ذلك هو الغزو الفكري الثقافي، الذي

يهدف إلى اقتلاع العقيدة من قلوب المسلمين، وتحويلهم عن صراط الله المستقيم (قطب: ص576).

و هدف الغزو الثقافي هو احتلال العقول، فهو أخطر من الغزو العسكري، حيث إن العسكري يستمدّ قوته من آليات الإخضاع الخارجي بخلاف الغزو الفكري!. وما أجمل قول القائل: (إنما تبدأ الأمم بالهزيمة من داخلها عندما تشرع في تقليد عدوّها)! إنّ الغزو الفكري يستهدف احتلال العقل، لأنه يضمن بعد ذلك - في حالات الضعف الذاتي - دوام الهيمنة على الإرادة والإمكانات القومية برمّتها! إن هذا الغزو لا يحتاج إلى الأسلحة التقليدية لأنه مزوّد بسلاحه الفتاك الداخلي، وذلك من خلال آلية صناعة تعقل!.

وهكذا يتبين لنا أن الغزو الفكري أخطر من العسكري لأنه يركز على العقول والقلوب ،بخلاف العسكري الذي يركز على الأرض، ويسهل إدراكه من العالم والجاهل، أما الفكري فلا يدركه إلا الخاصة، ويعمّر أكثر من الغزو العسكري .ويبقى للغزو الفكري أتباع من أبناء البلاد بعد انسحاب قوات الاحتلال، وهؤلاء يحكمون العباد بعد انسحاب الغزاة بعقلية المستعمرين! ومن آثار هذا الغزو: إثارة الشبهات حول الإسلام (أبو فارس:1412/ ص76)!.

لقد كانت تكاليف الغزو العسكري لديار الإسلام باهظة جداً، حيث واجه المحتلون الغزاة مقاومة عنيفة في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وأدّى هذا الغزو إلى إثارة الشعور الديني عند كثير من المسلمين، وأيقنت الجماهير حقيقة هذا الغزو وأنه حرب صليبية جديدة (العالم: 1975م/28)، وظهرت من ثم حركات وجماعات إسلامية تدعو للجهاد في سبيل الله. وتكبّد الغزاة خسائر مادية في الأفراد والعتاد! وإذا كان الهدف الحقيقي من الاستعمار هو محاربة الإسلام وتشويهه ومن ثم القضاء على الخلافة الإسلامية (العثمانية)، وتفتيت العالم الإسلامي وتجزئته وابتلاع قسم منه، ونهب خيرات البلاد، واستعباد العباد، وجعل أسواق المسلمين ميداناً فسيحاً لترويج بضائع الغرب -باستثناء التقنية المتقدمة -فقد خطط المستعمرون (المخرّبون) الجدد لاستمرار الأوضاع على ما هي عليه، ولكن بدون احتلال عسكري هذه المرة، وبدون إثارة الشعور الديني للمسلمين (الأشقر واخرون: 1970 / ص34)!

قام الغزاة الأوروبيون لتحقيق أهدافهم الجديدة بما يأتي:

جلبوا المطابع لديار الإسلام، وطلبوا من المستشرقين والمبشّرين (المنصّرين) ترجمة الكتب الأجنبية - غير النافعة - إلى اللغة العربية، وقاموا بابتعاث نفر من المسلمين المبهورين بحضارتهم ممن انقادوا لهم في بعثات خارجية لديار الغرب الكافر، فانبهر هؤلاء بحضارة

أوروبا، وبعد إفسادهم وعمل ما يسمّى(بغسيل دماغ لهم) أوحوا لهم أن سبب تقدّم الغرب هو كفره بالدين وبعده عن تعاليم السماء، فمن أراد اللحاق بهم فعليه أن يقتفي أثرهم!! (دروزة: 1392ه/293)

والحقّ يقال: إنّ من حقّ الغرب أن يكفر بكنائس أوروبا، وبرجال دينها، لأن الدين المحرّف هناك يحارب العلم ويتناقض مع المنطق ولا يصلح للحياة والأحياء، حيث إن الأباطرة والساسة والأمراء كانوا يستعبدون الناس باسم الدين! وما حدث في الغرب من صراع بين العلم والدين لم يحدث قط في العالم الإسلامي على مدار التاريخ، بل إن العكس هو الصحيح، فالعلم محراب للإيمان (الباحث: 1992م /17) .

وحين انسحبت جيوش المحتلين من الديار الإسلامية فيما بعد، تسلّم الأمر من بعدهم من تربّى على أعينهم من المسلمين، ممن أضاعوا الصلاة وغرقوا في الشهوات! كذلك قام هؤلاء الغزاة بشنّ هجوم مركّز على مناهج التربية والتعليم، فشوّهوا مفهوم الدين في نفوس الناشئة، وهاجموا التاريخ الإسلامي بأساليب ماكرة بقصد قطع صلة الخلف بالسلف، وحتى يضمنوا إفساد بقية المسلمين من غير طلبة العلم: قاموا بإفساد وسائل الإعلام المختلفة، ثم شنّوا هجومهم على مراكز الإشعاع في العالم الإسلامي كالأزهر والقرويين والزيتونة، وحوّلوها من مراكز للتعليم والتوجيه والدعوة والقدوة والقيادة - إلى مقدسات أثرية خالية من الروح والرجولة والجدية، وحاولوا أن يكون سدنتها كرجال الدين الكهنوت في الفاتيكان القطان:1991م /8 -10. ثم فصل المخربون الأوروبيون الأخلاق والآداب عن شؤون الحياة المختلفة ، واستبدلوا القوانين الوضعية -عن طريق عملائهم ممن يحملون أسماء المسلمين -بالشريعة الربانية الغرّاء، ونادى أحد صنائعهم وهو الذي تربّى في أحضانهم وجعلوه نجماً وبطلاً في عيون الجماهير -بأنّ الدين لله تعالى وأن الوطن للجميع (القطان:1991م /8 -10)!

وقام أعداء الله بأعظم إفساد للأمة الإسلامية بل وللبشرية كذلك عن طريق إفساد الأسرة – ممثلة بالمرأة: زوجة وابنة صغيرة وكبيرة – فشنوا هجومهم الكبير على الحجاب والزى الإسلامي، وأخرجوا المرأة من بيتها، وأوحوا لها عن طريق – دعاة التغريب - بأن الدين هو سبب ظلمها وتأخرها وجهلها، فتحررت المرأة -كما خططوا لها -لا من الظلم والجهل بل من الدين والأخلاق والقيم.. ومن قوامة الرجل عليها.. وخرجت من بيتها للعمل والفتنة ومنافسة الرجال، ونسيت أن مهمتها صناعة الأبطال وتربية الأجيال (الأشقر :ص40)!

وهكذا فإنّ الغزاة المحتلّين لم يرحلوا عن ديار المسلمين إلا بعد القضاء على الخلافة الإسلامية(العثمانية) وابتلاع قسم منها، وبعد تشويه الدين الإسلامي الحنيف بوساطة الاستشراق والتبشير ودعاة التغريب، وإفساد مناهج التعليم ووسائل الثقافة والإعلام، وبعد الاطمئنان على أن من سيخلفهم في الحكم لن يحكم بما أنزل الله، ولن يحول دون استمرار وصول خيرات وثروات المسلمين إليهم!

وبعد رحيل المستعمرين عن ديار المسلمين، تسلّم الحكم من بعدهم من صنعوه على أعينهم وأكمل هؤلاء ما بدأه الأعداء، بل إنهم نفذوا أكثر مما طلب منهم، ووقفوا عائقاً أمام إعادة الخلافة الإسلامية إلى الأرض من جديد، واستمروا في محاربة الشريعة وتجزئتها، وفي إيصال ثروات المسلمين للأعداء، وحكموا الشعوب الإسلامية بالقوانين الوضعية، وفَصَلوا السياسة عن الدين ،والدين عن الحياة، وشجعوا العلمانية واليسارية والقومية، وجعلوا وسائل الثقافة والإعلام المختلفة بؤراً للفساد ومهاجمة الدين، وأبواقاً لتمجيد السلطة الحاكمة، والاحتفال بالمناسبات الوطنية والرسمية (الخطيب: 1397ه /ص161 والتميمي: 1404ه/31).

وحوّل القادة والساسة مهمة الجيوش من الجهاد في سبيل الله وحماية بيضة المسلمين إلى حماية النظام الحاكم والدويلات الهزيلة، وإلى القضاء على المعارضة والتحرّش بالآخرين! وتخزين الأسلحة الدفاعية التي لن تستعمل في مواجهة المحتلين! وأغرقوا الشعوب بالشهوات، وشجعوا الاختلاط والمثيرات، وأيقظوا الفتن وأهدروا الأوقات والطاقات، وأنعموا على الأقليّات، وجعلوا من دوائر الوعظ والأوقاف والمحاكم والإفتاء.. مراكز وأدوات لخدمتهم، وتشويه حقيقة الدين، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتخدير الشعوب، ومحاربة الدعاة الصادقين، وبثّ الدعاية للحكام، وكمموا الأفواه، وكبتوا الحريات، وسجنوا وقتلوا وأفسدوا.. وحكموا عباد الله بالحديد والنار القضاة وآخرون: 1997م |/181، وتحقق ما قاله الشاعر:

تجده كالطير مقصوصاً جناحاه!! أين اتجهت إلى الإسلام في بلدِ

وهكذا يتبين لنا خطورة الغزو الفكري والفكري المعاصر،خاصة في هذا العصر ، عصر العولمة وهيمنة الثقافة الأجنبية على عالمنا العربي الإسلامي ، مما يفرض على الغيورين من امتنا من القائمين على مؤسسات التعليم العالي مواجهة هذا الغزو الجديد لتحصين الناشئة من فلذات أكبادنا ضد غزو خبيث في الصميم يستهدف الدعوة والدعاة .

دور الجامعات في التصدي للغزو الثقافي المعاصر

المبحث الأول: نحو فكر ثقافي إسلامي أصيل

للإجابة عن التساؤل الثاني : ما دور الجامعات في التصدي للغزو الثقافي المعاصر ؟ أقول وبالله التوفيق : لا بد من الحديث عن الفكر الإسلامي الأصيل ، وإسلامية المعرفة ،وإيجاد الحلول لمواجهة هذا الغزو.

لقد واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر مشكلة في غاية الدقة والتعقيد والخطورة، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله.. إنها مشكلة الحضارة الغربية الفتية الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار وحب الاستيلاء على الآخرين، وهي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ الإنساني (الندوي: 1977م/4).

لقد عرف عدونا سرّ قوّتنا وأسباب تفوّقنا، فعمل جاهداً على إبعادنا عن منبع النور.. ودخلنا معه في معارك غير متكافئة، حيث إننا لم نعدّ العدّة لذلك، فانهزمنا أمامه في معاركنا الحربية، وفي معاركنا السياسية والفكرية.. وكانت الأخيرة أخطر أنواع الهزائم، لأنها أتاحت له فرصة وضع يده على وسائل التوجيه والتعليم في الأمة المسلمة عميره:(ص4)،.

ولو كنا على ثقة من ديننا فإننا لا نخشى أن نواجه كل ما يرمينا به أعداؤنا من تلك الضلالات ، التي تلبس ثوب العلم الخالص والنصح الأمين. ذلك أن الحق باق خالد أبداً ،وأن الباطل زاهق زائل! نحن لا نخشى على ديننا أن تحجب أضواؤه المنزلة من السماء تلك الأبخرة المتصاعدة من قدور الغل والحسد الذي يؤرّق أعداء الإسلام. ولكنّ الذي نخشاه من هذه الحرب المسعورة أن تفتن بعض الأغرار منا وأن تلبسهم زيا إسلامياً زائفاً، فيحسبون على الإسلام ويضافون إلى أهله، وما هم في حقيقة أمرهم إلا أمساخ، ظاهرهم الإسلام اسماً أو وطناً وباطنهم خواء وفراغ من الإسلام (الخطيب:.1975م /37).

يجب أن تكون مناهجنا إسلامية في استلهام القرآن الكريم ،لا أن نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن الكريم ذاته، نحاكم إليها النصوص، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة. لقد جاء النص القرآني ابتداء لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله تعالى أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم(قطب:1980م/15)

ومن فضل الله على هذه الأمة أنها تعيش اليوم في جميع بقاع الدنيا نهضة إسلامية مباركة، وهي بين شبابها أكثر. وكما أن لهذه النهضة إيجابيات كثيرة وأنها في جملتها أحيت

الأمل بين المسلمين، وتحققت بها مصالح عظيمة للإسلام، إلا أنها مع ذلك قد يعتريها ما يعتري البشر من النقص والخلل والتقصير، وهذا أمر طبيعي.(العقل: 1416هـ/99).

لقد قدّر الله تعالى لأمتنا الإسلامية -كما تبين لنا من قبل -أن تستفيق من غيبوبتها وتصحو من غفوتها، ونما المدّ الإسلامي حتى أصبح القوة الفاعلة والتيار المسيطر في الشارع (سياسياً وفكرياً)، وغدا بادياً للعيان هزيمة التيارات الوافدة أمام المدّ الإسلامي المتنامي، وبدأت الفكرة الإسلامية تعود لتتبوأ مكانها في عقول الناشئة وضمائرهم، فكان أن التفت أصحاب هذه التيارات إلى السلاح الجديد، فتخلّفوا عن المواجهة المكشوفة ولجأوا إلى الغزو من الداخل، حيث وجدوا فيه ضالتهم المنشودة، فاحتملوه فرحين وبدأت المعركة تدخل طوراً جديداً، فبدأنا نسمع عن اليسار الإسلامي، وديمقراطية الإسلام! بيد أن هذه الشعارات ذاتها لفظتها الفطرة المسلمة وأنكرتها عقول المسلمين(سلطان:5/4)!

إنّ المطلوب من القائمين على الصحوة الإسلامية اليوم هو السعي للتقريب بين واقع المجتمع المسلم في كل عصر وبين مجتمع الصحابة والتابعين، والمطلوب كذلك هو إحياء مفاهيم المجتمع الإسلامي الأول وتصوراته للدين، وإحياء مناهجه في فهم النصوص وبيان معانيها، وإحياء مناهجه في التشريع والاجتهاد وفي تدوين العلوم وتكوين نظم الحياة، واقتباس النافع الصالح من كل حضارة، وتصحيح الانحرافات النظرية والعملية وتنقية المجتمع من شوائبها (السعيد:1405هـ/281).

ومعلوم أن التراث الإسلامي كان الركيزة القوية التي اعتمدت عليها أوروبا في نهضتها العلمية الأخيرة، بل إن هذا التراث هو الذي رفد عصر إحياء العلوم في أوروبا، وانتقل إلى بقية العالم فكان له أبرز الأثر في إحياء حركة العلوم في أوروبا(محمود:79).

ويمتاز التراث الإسلامي عن تراث الأمم الأخرى في مظاهر منها أنه يصدر عن فكر ربّاني قام على الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وحرص قادة هذا الفكر على حمايته من الاضطراب والتزييف،وذلك بوضع قواعد وأصول طبّقت بدقّة في مجال السنّة النبوية والتاريخ الإسلامي، وأنشأت ذلك المنهج الدقيق من البحث العلمي ومراجعة النصوص والرواة، حتى أمكن حماية هذا التراث العظيم من الأهواء (الجندي:218) !

إن العلوم الشرعية وما يرتبط بها من قضايا لغوية وفكرية وسياسية وإدارية واجتماعية وتربوية ونفسية وإعلامية.. كل ذلك مرجعه إلى علماء الإسلام كل حسب اختصاصه.

والثقافة الأجنبية لا تخلو من أحد هذه الثلاثة: إما نافع وإما ضار وإما لا نفع فيه ولا ضرر.

فالنافع: كالنظريات العلمية والتراتيب الإدارية، أو ما تشهد للإسلام وتؤيده وتثني على حضارة المسلمين، أو كعلوم الطب والهندسة وغيرها.. فمثل ذلك ينبغي الاستفادة منه.

والضار: كالذي يتعارض مع الإسلام أو يحاربه، سواء كان ضرره على الدين أو النفس أو العقل أو المال أو النسل (العرض)، فمثل ذلك حرام مهما كانت الأسباب والأساليب.

وغير النافع وغير الضار: فإنه محل نظر، فإذا تحقق عدم الضرر منه حالاً ومآلاً: فتجوز الاستفادة منه، وهذا هو الانتقاء المطلوب (الطريقي:87و101و102) .

يتمّ دائماً وأبداً وفق هذا القانون: التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء ويجدّون في السعي لتحصيله، وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون بحذر قبل استلهامه وتمثّله، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه من ذلك الذي يرفضونه، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية (عمارة: 31/351) .

وهكذا يتبين لنا أهمية التركيز على الجانب العلمي النظري الذي يمكن اتّباعه في المؤسسات التعليمية لمواجهة الغزو الفكري الثقافي المعاصر، ومن ثم السعي لإيجاد إطار قابل للتطبيق ، وذلك بالعودة للكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وأسلمة المعرفة والعلم والثقافة العامة . وهذا ما سنتناوله في البحث القادم بإذن الله .

المبحث الثاني:

إسلامية المعرفة

المقصود بإسلامية المعرفة إظهار الدور الأكبر الذي يصنعه هذا الدين الحنيف في صبغ المعرفة بمختلف معانيها ومضامينها بصبغتة المميزة الخاصة. ومعلوم أن الإسلام دين مستقل ومتميز وقائم على الاعتدال والمرونة واليسر والشمول والعالمية. وقد جاء لينشر في الدنيا_ وفي البشرية - التعارف والحق والتعاون والحبّ والأمن والسلام، بعيداً عن متاهات التعصب والأنانية والحقد والظلم والفوضى ...ويومَ تصطبغ ثقافتنا ومعارفنا ومناهجنا وإعلامنا بصبغة الدين الإسلامي الحنيف، فسوف تنعم البشرية بالسعادة والطمأنينة من العقيدة الربانية الحقة والفكر الحر الغزير المستنير ... نعم ستجد البشرية جمعاء أنها في رحاب الإسلام العظيم الذي ينشئ من الثقافة المعرفة والعلم والتربية والإعلام، ما يتمناه الفرد والمجتمع بل كل الأجيال، في أي زمان أو مكان أو مجال (انظر كلمة اللجنة التحضيرية: 1)!

وما من شك في أننا إذا كنا جادّين حقاً في إحياء دور مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا التي أضاءت بنورها ديار الغرب - في العصور الوسطى - فيجب أن نسعى جاهدين لإيصال معارف وثقافة المتعلم المسلم ومنهجه وضميره ومشاعره بمبادئ الإسلام وأصوله وأسسه وتراثه، فنبعث بذلك الروح الدينية فيه، ومن ثم يصل إليه ضياء ونور الشمس من الشمس مباشرة دون عائق أو وساطة (المودودي: 298)!

يجب على القائمين على المؤسسات العلمية في ديار المسلمين تجنيد العلماء الأكفياء، وخاصة ممن لهم باع طويل في التخصص الاجتماعي ومعرفة ودراية بالمنطلقات والتراث الإسلامي، وذلك للعمل الجادّ والبحث العلمي المنظم المتواصل المتخصص، في شكل دراسات علمية تتضح من خلالها الرؤية الواضحة والمنهجية المطلوبة (أبو سليمان:1412هـ/277).

لقد جمع التعليم الإســـلامي بين علوم الدين الأصيلة وبين علوم الدنيا النافعة، فكانت المدارس والمعاهد والجامعات الإســـلامية – في حواضر العالم الإسلامي – تحرص على تدريس شتى المعارف الدينية والدنيوية من وجهة نظر إسلامية بحتة. ولكن اختلف الحال وتغيّر فيما بعد - نتيجة الغزو الفكري المعاصر كما تبين لنا من قبل ، مما جعل النظرة إلى المعاهد العلمية الإسلامية تتغير عما كانت عليه من قبل، فبدلاً من المحافظة على طابع المدارس الإسلامية عمل الغزو الثقافي على إزالة معالم هذه المعاهد الدينية، ولم يعمل أحد على تطويرها (الشخشير : 20).

وبعد أن كانت المدارس بقرب المساجد لتلقي العلوم الدينية والدنيوية المتنوعة، انفصلت عنها وابتعدت، وأقبل الشباب - مع شديد الأسف - على الكليات العلمانية (اللادينية) الحديثة، التي قامت بدورها بنشر مظاهر الثقافة الغربية، وفي الوقت نفسه لم تواكب المعاهد الإسلامية حركة انتشار العلوم الطبيعية مما قلّل من الإقبال عليها!

لا بدّ - والحق يقال - من إيجاد أسلوب ومنهج يزيل الازدواجية في التعليم، ويؤدي إلى انتشار مناهج وأساليب الثقافة الإسلامية في جميع مراحل وبرامج التعليم الخاصة والعامة في المدارس والجامعات الدينية والدنيوية.

يجب إزاحة الغبار عن تراثنا الإسلامي، وأن نظهر للعيان فضل القوة العظمى الكامنة في حضارتنا الإسلامية العتيدة، لئلا يتسرب اليأس إلى الجيل الحاضر حين يرى الشعوب المسلمة متخلفة عن غيرها في مضمار العلوم الدنيوية. لذا فإن على كل باحث أن يشمر عن ساعديه ويشحذ قريحته، فيدلي بدلوه ويخطو خطوة على الطريق، كي يضع لبنة في صرح إحياء تراثنا الإسلامي الأصيل العميق الجديد العتيق (القدومي:ص21).

وسنجد بحمد الله في هذا التراث الضخم الذي خلّفه لنا الأجداد آثاراً خالدة لحياة حافلة بالمجد العلمي والسمو الفكري والإبداع الفني ... ومن الإنصاف أن يحظى هذا التراث بعنايتنا، وأن نعود إليه للاسترشاد به في تطوير مناهجنا ، في المدارس والمعاهد والجامعات،وأن نربط هذه المناهج بالفرد والمجتمع والدولة. وحبذا لو تم إنشاء معهد إسلامي علمي عالٍ، مهمته السعي الجادّ لإحصاء تراثنا وعمل فهارس علمية له، حيث يقدّر بعض الباحثين عدد المخطوطات العربية في مكتبات العالم والمراكز العلمية في الكرة الأرضية بأكثر من مليون مخطوط ، تنتظر من يبعثها إلى النور(أحمد:1399هـ/ص15).

لقد عمل أعداء هذا الدين جاهدين (لعلمنة) المناهج الدراسية، وأقصوا المفاهيم الإسلامية عنها، وجعلوا تدريس مادة الدين شيئاً ثانوياً، بالإضافة لإهمال وسائل الإعلام للثقافة الإسلامية والأحكام الشرعية، وساعد على ذلك بعض علماء السلاطين بالإضافة للرقابة الحكومية على المطبوعات ودور النشر!

إنّ إسلامية المعرفة أساس ضروري لإصلاح الفكري والحضور الثقافي والعمراني لأمتنا الإسلامية المجيدة، وذلك لإزالة الانفصام النكد بين الدين والدنيا، والعلم والإيمان، والفكر والتطبيق، والمثال والواقع، والقيادة الفكرية والقيادات السياسية والاجتماعية (المعهد العالمي للفكر الإسلامي:ص8)!

وفي جعبتنا و في خزائننا الجواهر والدرر وإنْ علاها الغبار والتراب من طول الزمن وكثرة الكيد، لكنها لا تزداد مع مضي الوقت إلا أهمية كما قيل:

والأسْد في قفص الحديد أسودُ ! إنّ الجواهر في التراب جواهرٌ

وما عند الغرب الكافر هو سراب خادع ! ومعدن برّاق لكنه غير أصيل، فـــلا ينبغـــي لأمتنا المجيدة أن تترك الجواهر في خزائنها لتمدّ يدها إلى المعادنِ الرخيصة! ولله درّ القائل فـــي وصف من هذا حالهُ:

والماء فوق ظهورها محمولُ! كالعيس في البيداء يقتلها الظّما

لا يصح والله أن تكون الأيدي المتوضئة والوجوه المنيرة هي السفلى، وأيدي الأعداء القذرة الملطخة بدمائنا هي العليا! فكيف إذا كانت اليد المتوضئة هي التي تملك الجواهر الثمينة الغالية النادرة ؟! وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن لا نستفيد من علوم الغرب الدنيوية وتجاربه الكونية، مع أهمية المحافظة على ديننا ومبادئنا وقيمنا وأخلاقنا وعاداتنا، فلا نبيع ولا نضيّع شيئاً من إسلامنا ولو بمتاع الدنيا كلها (جريشة:ص100)!.

المبحث الثالث

المشكلة والحل:

إنّ المسلمين في العهود الأولى للإسلام وعلى الرغم من عدم نضوجهم العلمي والمعرفي، إلا أنهم استطاعوا التأثير في الآخرين ولم يحدث العكس، فكانوا ينشرون تعاليم الدين أينما رحلوا، بشكل بسيط وبعبارات قصيرة، وكانت النتيجة دائماً دخول الناس في الدين الإسلامي زرافات ووحدانا (آل حمادة:1422/10/14هـ).

يقول العالم الفرنسي المعاصر (جاك أوستروي): (إنّ طريق الإنماء الاقتصادي ليس مقتصراً على المذهبين المعروفين الرأسمالي والاشتراكي بل هناك مذهب ثالث راجح هو المذهب الإسلامي..) ويستطرد قائلاً: (إنّ هذا المذهب سيسود عالم المستقبل، لأنه أسلوب كامل للحياة (العسال:1977م/ط2،ص13و14).

إنّ تجاهل العربي المسلم لثقافته المستمدة من التراث الإسلامي يصل به حتماً إلى النتيجة التي وصل إليها الغربي، حيث أوصلته ثقافته إلى الانحراف الخلقي والخواء الإيماني والفراغ الروحي، مما أدى إلى عذاب نفسي داخلي يحس به في أعماقه، أوصله إلى حالة من عدم التوازن في شعوره ومداركه (الشباطات:عدد7571/ 200/12/31م،ص25).

ومع الأسف أصبح المثقف العربي نسخة (كربونية) من المثقف الغربي في أفكاره ورؤاه وإشكالياته، ومن ثم فإن تسمية المثقف العربي تصبح هنا غير ذات معنى، وتكون معالجة القضايا والإشكالات عند المثقف العربي مصطنعة، وقراءة مختلفة لتاريخ الأمة. ذلك أن النخب المثقفة في الغرب ضاعت قضاياها وأفكارها داخل الغرب نفسه، ومن ثم فإن نخبنا العربية المثقفة عندما تستعير المشكلات والحلول من الغرب فإنها بهذه النظرة تصبح كتلة منفصلة عن المجتمع، وتكون حلولها المطروحة مجرد استعارة وهمية لمشكلات غير قائمة (العليان: عدد 2001/12/7571/31م، ص14).

إنّ العولمة(الغزو المعاصر) تستهدف الدولة والأمة والوطن. وتسمّى هذه بثقافة الاختراق، أي اختراق مقدسات الأمم والشعوب في لغاتها ودولها وأوطانها وأديانها (الجابري:1997م/ص147).

وهدف المشروع السياسي للنظام العالمي الجديد الذي انتهى إلى العولمة هو تفتيت دار الإسلام إلى دويلات صغيرة ضعيفة مهزوزة، مبتلاة بالكوارث والمجاعات والصراعات والأزمات حتى يسهل القضاء عليها (الجميل:1997م/ص57).

إنّ دور الجامعات في العالمين الإسلامي والعربي ليس محصوراً في مواجهة الحضارة الغربية المادية المعاصرة، ولا بإيقاف غزوها العسكري أو الثقافي، بل على المدى البعيد بهداية هؤلاء المغضوب عليهم والضالين إلى الصراط المستقيم! إنّ طموحنا وأملنا بالله تعالى وثقتنا بأحكام شريعتنا واعتزازنا بحضارتنا ونظرتنا للمستقبل.. كل ذلك لا يجوز أن يقف عند حدود الاكتفاء بردّ العدوان، بل ينبغي أن يتعداه إلى الردّ على المعتدي ودعوته بعد ذلك للإسلام .

ولكن كيف نواجه الغزو الغربي المعاصر فنكفّ أثره السلبي عنا، وكيف نواجه الحضارة الغربية فنقوّمها ونصلحها كي تكون حضارة إنسانية حقاً؟ إنّ هذا لا يتأتّى ولا يمكن أن يتمّ إلا إذا أصبحنا أمة قائدة رائدة تحكم بالإسلام (عقيدة وشريعة ونظام حياة)! قال تعالى: ﴿ قالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا أو لم نمكّن لهم حَرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كلّ شيء رزقاً من لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾(سورة القصص آية 57) وقال تعالى: ﴿ الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(سورة الحج آية41)

إنّ المطلوب من الجامعات كما يقول المفكر الإسلامي الكبير (شيخ ادريس) في دراسته العلمية الجادّة :(الدعوة الإسلامية والغزو الفكري) أسلمة العلوم:

أ. عن طريق تغييرها وتنقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام.

ب. طرح كل النظريات التي لم يثبتها الواقع والتي تخالف حقائق الدين.

ج. استبدال الأُطر الفلسفية الإلحادية بإطار توحيدي رباني إلهي.

د. اعتبار الوحي (الكتاب الكريم والسنة المطهرة) أهم مصادر العلم والحقائق العلمية والكونية والمعارف العامة، وهذا يستتبع إدخال كل ما أثبته الكتاب والسنة في مضمون العلوم :(كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها).

ه. السعي نحو الأصالة في كل ما يواجهنا من مشاكل وما نوليه من أولويات.

و. صياغة العلوم كلها بلغة عربية فصيحة، حتى تكون لغة الضاد هي لغة جميع العلوم الدينية والدنوية .

وإذا نجحنا في أسلَمة المعارف والعلوم والفنون، فيجب أن نخطو الخطوة الثانية كما يقول المفكر الإسلامي الراحل شيخ إدريس (شيخ إدريس:1401هـ/1987)– رحمه الله -وهي:

*** (دراسة الغرب):**

والمقصود بذلك دراسة تاريخه وواقعه ومستقبله وتجاربه من وجهة نظر إسلامية بحتة! إننا الآن - مع الأسف – نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه! بل قد نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون أنفسهم ! وقد آن لنا ولجامعاتنا وأولي الأمر منا ولعلمائنا أن نعكس الأمر: فيكون لنا مختصون بشؤون الحضارة الغربية يعالجون قضاياها على أساس إسلامي وفق مصلحة المسلمين (انظر الشنقيطي:1403هـ/4/382).

إنّ المرجو من محاولة صياغة العلوم على أساس إسلامي ومن الدراسات الغربية كذلك أن تساعدنا في الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية المعاصرة فنأخذ من الغرب:

أ. المنهج العلمي: وذلك بعد تنقيته من شوائب الإلحاد والكفر والضلال.

ب. الحقائق الجزئية التي كشفتها الحقائق العلمية.

ج. كل ما بني على هذه العلوم من تقنيات وما أدّت إليه من صناعات وآلات ومهارات.

د. الاستفادة من تجاربه في مختلف مجالات الحياة وشؤونها الدنيوية، بشرط أن نكيّف ما نأخذه مع إطارنا الإسلامي القويم.

أما الآداب والعادات والفنون فينبغي دراستها والاستفادة من إيجابياتها – إن وجدت – بشرط أن لا نفتح لها باب الولوج إلى الجماهير الإسلامية، بل يجب أن تكون هذه كلها موضع دراسة المختصين من العلماء العاملين والدعاة الصادقين المخلصين.

ومن المعلوم أن أكبر تحدّ يواجه الدعوة الإسلامية والدعاة اليوم هو الإلحاد والعلمانية، فإذا نجحنا في التصدي لهما بالنقد العلمي المستنير، وبأن نقدّم التصور الإسلامي بديلاً لهما، وأقمنا الحجج العلمية والشواهد الواقعية على ذلك، فإننا نكون – والحق يقال – قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية المجيدة فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله، فالعالم اليوم يقترب من الدمار، حيث ساد فيه فساد التصور والذي أدّى بدوره إلى فساد السلوك في الأفراد والمجتمعات والأجيال (أنظر الصافي:1413هـ/ص25)!

وهذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين، وهذان هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية الثقافية الإيمانية، وصدق الله العظيم:

﴿ **وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾(سورة السجدة آية 24).

الخاتمة:

هذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث

1. الثقافة والفكر والتعليم من أهم ركائز حياة الأمم والشعوب والأجيال، وهي أكبر دليل على حياتها أو موتها تأخرها أو تقدّمها، في مختلف شؤون الحياة. والثقافة الإسلامية هي روح أمتنا المجيدة الفريدة.
2. قامت الثقافة الإسلامية – قديماً وحديثاً – على الدين الإسلامي – ممثلاً بالكتاب المجيد والسنّة المطهرة -، وأنتجت أعظم حضارة إنسانية على مدار التاريخ، جمعت بين الإيمان والعمل والمعرفة والسلوك والدنيا والآخرة.
3. الصراع بين الحق والباطل قديم وعميق ومتشعب ومستمر إلى قيام الساعة، وقد أيقن أعداؤنا استحالة القضاء على الإسلام والمسلمين مهما تعددت المحاولات، فلجأوا إلى غزو جديد عجيب هو غزو العقول والأفكار (الغزو الثقافي).
4. نجح الغزو الفكري الثقافي المعاصر نجاحاً كبيراً ، بسبب غياب الخلافة الإسلامية عن الوجود والشهود، وما نزال نعاني من هذا الغزو حتى الآن.
5. لولا أن هذا الدين محفوظ بحفظ الله: لكان في متحف النسيان وفي خبر كان منذ أمد بعيد، نتيجة مكر أعداء الله للقضاء عليه، ومحاولاتهم المستميتة لطمس نوره والحدّ من انتشاره.
6. مما يدعو للتفاؤل ويبشر بالخير: هذه الصحوة الإسلامية المباركة المعاصرة، المتمثلة بعودة قطاعات واسعة من المثقفين وخاصة الشباب إلى دين الله عودة حقيقية صادقة معتزة بأصول الثقافة الإسلامية.
7. ينبغي للقائمين على مناهج التربية والتعليم – في المدارس والجامعات – السعي الجادّ الحثيث لأسلمة المعارف والعلوم والفنون المتنوعة، وأخذ ما ينفع من الحضارة الغربية وترك ما لا يفيد.
8. للجامعات الدور المهم الكبير في عمليات التنمية البشرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولتحقيق هذه الأهداف لا بدّ من تعاون الحركات والجماعات الإسلامية، مع رجالات التربية والتعليم وأولي الأمر في الدعوة للإسلام و الدفاع عنه.

9. للجامعات الدور المميّز في نشر الثقافة الإسلامية في الأفراد والمجتمعات المسلمة والتصدّي لدعاة التغريب والعولمة والاستشراق والتبشير والإلحاد والفساد.
10. لا بأس من الانفتاح على الحضارات المعاصرة واقتباس النافع منها، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها!

المراجع:

1. أحمد (محمد عبد القادر): دراسات في التراث العربي، ط1، 1399هـ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر.
2. الأشقر (عمر سليمان): نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط2، 1412هـ، دار النفائس، الأردن.
3. آل حمادة (حسن): ثقافة الخوف من الآخر .. لماذا؟ مقال في جريدة الوطن، السبت 1422/10/14هـ، السعودية.
4. الباحث: حاضر العالم الإسلامي، ط1، 1992م، مطبعة النصر، فلسطين.
5. التميمي (عز الدين الخطيب): نظرات في الثقافة الإسلامية، ط1، 1404هـ، دار الفرقان، الأردن.
6. الجابري (محمد عابد): قضايا في الفكر العربي المعاصر، ط1، 1997م، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
7. جامعة القدس المفتوحة: الثقافة الإسلامية، ط1، 1997م، الأردن -فلسطين.
8. جبر (يحيى عبد الروؤف): الغزو الفكري (ضمن مجموعة أعمال المؤتمر الإسلامي الأول:إسلامية المعرفة).المنعقد في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين،1993م
9. جريشة (علي محمد) والزيبق (محمد شريف): أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ط1، 1397هـ، دار الاعتصام، مصر.
10. جميل (سيّار):العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط، ط1، 1997م، لبنان.
11. الجندي (أنور): الإسلام والدعوات الهدامة، ط1، 1982م، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
12. الجندي (أنور): القرن الخامس عشر الهجري، ط1، المكتبة العصرية، لبنان.
13. حسين (طه): مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، مصر.

14. حنبل (أحمد): المسند، وبهامشه كنز العمال، ط1، دار صادر والمكتب الإسلامي، لبنان.
15. حوّى (سعيد): جند الله ثقافة وأخلاقاً، ط2، لبنان.
16. الخالدي (مصطفى): التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط4، 1970م، المكتبة العصرية، لبنان.
17. الخطيب (عبد الكريم): مسلمون وكفى، ط1، دار الشروق، مصر.
18. الخطيب (عمر عودة): لمحات في الثقافة الإسلامية، ط2، 1397هـ، مؤسسة الرسالة، لبنان.
19. أبو داود (سليمان بن الأشعث): سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، 1370هـ، مصر.
20. دروزة (محمد عزّة): القرآن والمبشرون، ط1، 1392هـ، المكتب الإسلامي، لبنان.
21. الزين (سميح عاطف): الإسلام وثقافة الإنسان، ط7، دار الكتاب اللبناني. ،لبنان.
22. السباعي (مصطفى): السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط1، مصر.
23. السعيد (بسطامي محمد): مفهوم تجديد الدين، ط1، 1405هـ، دار الدعوة، الكويت.
24. السعيد (عبد الستار فتح الله): الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الأنصار، مصر.
25. سلطان (جمال): غزو من الداخل، ط1، 1412هـ، معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، دار الوطن، السعودية.
26. سليمان (عبد الحميد أحمد): أزمة العقل المسلم، ط1، 1412هـ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا.
27. شباطات (محمود مزعل): أهمية الهوية الثقافية للأمة، مقال في صحيفة عمان، عدد 7517، 2001/12/31م، مسقط ،عُمان.
28. الشخشير (محمود تيسير): تدريس العلوم الاجتماعية من منظور إسلامي(بحث مقدم لمؤتمر إسلامية المعرفة المنعقد بجامعة النجاح عام 1993م.)
29. الشنقيطي (محمد الأمين): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط 1403هـ –

السعودية، مصر.

30. شيخ إدريس (جعفر): الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، بحث مقدّم للمؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية بالخرطوم في 22 جمادي الأولى 1401هـ بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري، السودان.

31. صافي (عثمان): أسلمة العلوم الإسلامية عنوان وهمي لا واقع موضوعي له، ط1، 1413 هـ، دار الكتاب العربي، لبنان.

32. الصواف (محمد محمود): المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ط1، دار الاعتصام.مصر.

33. الطريقي (عبد الله بن إبراهيم): الثقافة والعالم الآخر، ط1، 1415هـ، دار الوطن، السعودية.

34. العالم (جلال): قادة الغرب يقولون دمّروا الإسلام، ط2، 1975م، دار الأمل، لبنان.

35. عبد العزيز (أمير): معالم الثقافة الإسلامية، ط7، 1421هـ، المكتبة الجامعية، فلسطين.

36. عدوان (عاطف) وأبو قاهوق (عبد المنعم) والشـــــريدة (محمد حافظ) وقدومي (مروان) والأشقر (ياسر): الثقافة الإسلامية، مطبعة النصر – فلسطين.

37. عسال (أحمد محمد) وعبد الكريم (فتحي): النظام الاقتصادي الإسلامي، ط2، 1977م، مطبعة الاستقامة، مصر.

38. العقل (ناصر بن عبد الكريم): من قضايا الصحوة، 1416هـ، دار المسلم، النشر والتوزيع، السعودية.

39. عليان (عبد الله بن علي): المثقف العربي وأولويات المستقبل الثاني، مقال في صحيفة عُمان، عدد 7517، 2001/12/31، مسقط، عُمان.

40. عمارة (محمد): الانفتاح العربي على الحضارات الأخرى، مقال في مجلة العربي عدد 351، الكويت.

41. عميرة (عبد الرحمن): المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، ط1، لبنان.

42. عودة (سلمان بن فهد): عبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في الإسلام، ط2، دار طيبة، السعودية.

43. الغزالي (محمد): الغزو الثقافي يمتدّ في فراغنا، ط1، 1998م، دار الشروق، مصر.

44. أبو فارس (محمد عبد القادر): أسس في الدعوة ووسائل نشرها، ط1، 1412هـ، دار الفرقان، الأردن.

45. فودة (سهير زكريا): دور الأسرة في مواجهة التناقضات الثقافية، مقال في مجلة المنهل، عدد 65، 1420هـ، السعودية.

46. أبو قاهوق (عبد المنعم): إقصاء التشريع الإسلامي عن الحياة وأثره في ركود الحضارة الإسلامية (ضمن أبحاث مجموعة المؤتمر الإسلامي الأول – المنعقد بجامعة النجاح الوطنية عام 1993م).

47. قدومي (مروان): قيمة التراث الإسلامي ودوره في نهوض الأمة، بحث مقدم لمؤتمر الفكر الإسلامي الأول، بجامعة النجاح عام 1993م.

48. القضاة (خالد): الثقافة الإسلامية، ط2، 1997م، دار المناهج، الأردن.

49. القطان (مناع خليل): معوّقات تطبيق الشريعة الإسلامية، ط1، 1991م، مكتبة وهبة، مصر.

50. قطب(سيّد): خصائص التصور الإسلامي، ط5، 1980م، دار الشروق،مصر.

51. قطب (محمد): مذاهب فكرية معاصرة، ط1، دار الشروق، مصر.

52. قطب (محمد): واقعنا المعاصر، ط1، 1407هـ، مؤسسة المدينة، السعودية.

53. محمود (زكي نجيب): تجديد الفكر العربي، ط6، 1980، دار الشروق،مصر

54. محمود (علي): الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط1،مصر.

55. محمود (علي): الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية.

56. المصري (جميل عبد الله): حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ط2، 1409هـ، مكتبة العبيكان، السعودية.

57. المعهد العالمي للفكر الإسلامي: إسلامية المعرفة، ط 1406هـ، أمريكا.

58. المودودي (أبو الأعلى): نحن والحضارة الغربية، ط1، دار الفكر.

59. الميداني (عبد الرحمن حسن): أجنحة المكر الثلاثة، ط1، دار القلم، سورية.

60. الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط3، 1418هـ، السعودية.

61. الندوي (أبو الحسن): الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ط3، 1977م، مطبعة التقدم، مصر.

62. نوفل (أحمد) والمصري (عبد الغني) و عويضة (محمود): في الثقافة الإسلامية، ط1، 1404هـ. مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن.